في الخطاب الفكاهي العربي الموجَّه - شعر معروف الرُّصافي اختيارا

د.صالح مجيد علي الخزرجي جامعة وارث الأنبياء
salah.magid@uowa.edu.iq

تاريخ الطلب: ٢٥/ ١١/ ٢٠٢٠
تاريخ القبول: ٢٢/ ١٢/ ٢٠٢

ملخص البحث

الفكاهة والسخرية والمزاح والدعابة مترادفات ، الغرض المباشر منها الترفيه عن النفس واثارة الضحك ، أمّا في النتاج الادبي فقد قصد منها إيصال الفكرة النقدية للآخرين ، وعلى رأسهم الحكام الظالمون من دون التعرض للملاحقة ، كل ذلك دفاعا عن حقوق المظلومين ... وأحياناً يستعمل الادباء هذا الاسلوب لمجرد الضحك غير الهادف أو للتكسب كما في العصر الاموي ... هذا وقد حاولنا الإشارة لجوانب من ذلك لبحثنا هذا بعنوان : (في الخطاب الفكاهي العربي ، الخطاب الموجه- للشاعر معروف الرُّصافي اختياراً) الذي تضمّن مبحثين تقدمهما تمهيدٌ

وأعقبتهما خاتمه .. ثم قائمة الهوامش ، واخيراً قائمة المصادر والمراجع .

المقدّمة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمدلله في المبتدأ والمنتهى ، وصلّى الله على مَن ختمّ بداية الرسالات السماوية وأنهاها بخير رسالة ، وعلى آله وصحبه ومن والاه ، وبعد فقد تناول الأدب العالمي قديماً وحديثاً الأسلوب الفكاهي بوصفه حاجة مهمة طالما يهدف الأدب إلى تلبية حاجات الإنسان ؛ والتعبير عن تلك الحاجات بطرائق شتى، منها : الأسلوب الادبي الفكاهي ، وذلك للظروف الصعبة التي تمرّ بها المجتمعات ، وضرورة الترويح عن النفس بهذا الأسلوب لما ينتاب الشعوب من ويلات ومشكلات جمّة سياسية واجتماعية وثقافية ... ومن الجدير بالذكر أنّ الفكاهة الأدبية الجادّة لا تهدف لمجرد الاضحاك، وإنّما غالباً تضمّنت توجيه رسائل نقدية هادفة للإصلاح بشكل مباشر أو غير مباشر؛ فكان عنوان البحث

: (في الخطاب الفكاهي العربي الموجه،شعر معروف الرُّصافي اختياراً) .. هذا وقد توزّعت قراءتنا هذه على مبحثين سبقهما تمهيد بعنوان ((الخطاب والفكاهة لغة واصطلاحاً)) .. الذي اشتمل على ذكر إيجاز تعريف الخطاب والفكاهة لغة واصطلاحاً ... فيما كان المبحث الأول :((في الخطاب الفكاهي العربي الموجّه)) وأمّا المبحث الثاني فكان بعنوان ((في الخطاب الفكاهي الموجّه للشاعر معروف الرُّصافي)) .

وأخيراً الخاتمة.. وقد لخّصت النتائج التي نوصّل إليها البحث. وبعد فإنّ هذه القراءة هي محاولة لتسليط الضوء على الخطاب الفكاهي واختيار نماذج من شعر الرُّصافي نموذجاً ...

Abstract

Humor, irony, joking and joking are synonyms, the direct purpose of which is to entertain oneself and provoke laughter. As for the literary production, it is intended to convey the critical idea to others, especially the unjust rulers, without being persecuted, all in defense of the rights of the oppressed...

Sometimes writers use this method.

التمهيد

الخطاب والفكاهة لغة واصطلاحاً

أ- الخطاب (Discours) لغة واصطلاحاً

الخطاب لغة : وردت تعريفات كثيرة لمفردة (الخطاب) ، منها خَطَبَ : خَطَب على : خَطابة وخُطبة فهو خطيب خطب في الجمهور ألقى حديثاً- كلاماً أي خُطبة [١] ؛ وورد في معجم لسان العرب أن الخطاب هو (مراجعة الكلام)). [٢]

امّا الخطاب اصطلاحاً : فقد ذكر باحثون ومترجمون عربً إصطلاحات متقاربة مع بعضها ، لكنّها جميعاً تعود إلى حقل معروف واحد ، مثل (النص Text) و (الرسالة letter) وهناك تسميات أخرى متفرقة ، مثل : الإطروحة والحديث وربما تبتعد عن معنى المصطلح الأصلي قليلاً أو كثيراً [٣] .ويشير مصطلح الخطاب في معناه الأساس الى : ((كل كلام تجاوز الجملة الواحدة سواء كان مكتوباً أو ملفوظا) [٤] ؛ وللخطاب ركنان : المخاطِب والمخاطَب ولا بد أن يكون المخاطِب مؤثّراً في المخاطَب حتّى

يتأثّر الاخير ويتفاعل مع الخِطاب ... وهناك أراء متعدّدة في فهم الخطاب تتعلّق بثقافة القائلين بها ، فمنهم من يرى الخِطاب علامات معيّنة تعرف بأنها عبارات (ملفوظة) يمكن تعيين أنماط وجودها الخاصة ، وهذه وجهة نظر السيمائيين مثلاً [٥]...

ب- الفكاهة لغة واصطلاحاً :

الفكاهه لغة : هي ترادف الدُعابة والمُزاح، أي ما يُتمتع به في طُرَف الكلام . وتُستعمل الفكاهة على وزن فَعِل يَفْعَل ، يقال: فَكه الرجل فكها ، وُفكاهة ... والفَكِه هو طيّب النفس مزّاحاً، وتجيء صيغتها على وزن فَكِهٍ،وفاكهٍ،كما يقال : الرجل الَفكِه أو الرجل الفاكِه أي الذي يُكثرِ من الدُعابة .... وبها فُسر قوله تعالى: ((فَضَلْتم تفكهون)) ، وتفكّه منه أي تعجّب ، وتفكّه بالشيء أي تمتّع بالشيء وتلذّذ به [٦] ، أمّا في المنجد الوسيط فمادة فكه ، مصدرها فكاهٌ وفكاهة ، ورجل فاكهٍ، ناعم العيش يكثر من الدُعابة مزّاحاً ضحوكاً ومضحِكاً ، ومحدِّثٌ فَكِهٌ ظاهرُ النكتة ، ورجل فيه فكاهة ظريف مرح ، وملاحظة فكهة فيها ظرافة ومَرَح ، وفكّه : مزح بفكاهة ودُعابة [٧] .

الفكاهة اصطلاحاً :

في الاصطلاح الأدبي لم يتفق نقّاد الأدب على تعريف علمي موحّد ومحدّد لكلمة (الفكاهة) ، والسبب هو لكثرة مفرداتها ،واختلاف أنواعها ، وأقسامها فهي طُرفة ،ومُلْحة ، ونادرة ، وحكاية موجزة يَسرِد فيها الروائي حادثاً واقعياً أو متخيّلاً من عند نفسه فيثيرِ إعجاب السامعين ، ويبعث فيهم الإبتسامة والضحك ويُراد بالفكاهة : الموقف الَهزْلي الذي يعتمد على المفاجأة وإثارة الضحك،وهناك (فكاهة سوداء) وهي فكاهة تشوّه صاحبها ،وتحوّل المواقف إلى سخرية لاذعة للإيذاء على خلاف ما عرُفت به (الفكاهة الملطِّفة)[٨]. ومن خصائص أدب الفكاهة الخفّة والظرافة ، ويشترط في الفكاهي أن يكون صاحبَ ذكاء [٩] ، ليتوافر على خبرات معرفية محدّدة لإثارة الضحك والتسلية ،مع إنّ استجابة المتلقي للفكاهة تختلف من شخص لآخر حسب المزاج الخاص ؛ والحاله النفسية تبعاً للموقع الجغرافي والثقافة بشكل عام ، والنضج ،ومستوى التعليم والذكاء ،ومَن يستجب للفكاهة وتُبسط أساريره يتمتّع بصحبة الضحك وتحسّن المزاج وزيادة الألفة الإجتماعية وتخفِيف التوتر .

المبحث الاول: في الخطاب الفكاهي الموجه:

الأدب الهادف هو الذي يحاكي المجتمع ويختار الطريقة المثلى التي يصل بها الى قلوب الناس ، والأدب الفكاهي يستهوي المتلقين بدرجة كبيرة لحاجاتهم إلى المرح والفكاهة في ظلّ ظروف مرهقة قاسية فهي ((وسيلة نافعة للتهرّب - آنياً من بعض مشاغل الحياة وهمومها)) [١٠] .

لذا نرى الأدباء يحاولون الإبداع في هذا اللون الأدبي إيماناً منهم بأهمية الفكاهة ،إذْ تقاسُ درجةُ رقيّ الشعوب بمدى تعاطيهم للفكاهة ، وهي تختلف عن السخرية اللاذعة التي تسيء للآخرين بتسليط الضوء على عيوبهم وأخطائهم ،بل أحيانا الإفتراء عليهم ،كلّ ذلك من أجل إثارة الضحك ، فالإستهزاء ((يَنتُجُ عن اكتشاف نقطة ضَعْف لدى الغير ، يعتقد الضاحك أنه هو نفسه لا يتصف بها))[١١] ، فالفكاهة الهادفة هي التي تحاول إضحاك الغير من دون أساءة لذا تكون أكثر صُعوبة من الإستهزاء،الذي يترفّع عنه الأدباء الملتزمون فالأدبُ الفكاهي فنٌّ أبْدَعَتْه الشعوب منذ الأزل ؛ على أنّ الفكاهة لا تقتصر على الأدب فقط ، وإنّما تتصِل بعلوم الفلسفة والنفس والإجتماع ، والتعبير عنها يمكن أنْ يكون بالتمثيل والرسم والإشارة أيضاً ، ثم أنّ ما يُضحِكُ شخصاً أو شريحة اجتماعية ربما لا يُضحك الآخرين ، وقد بدأت الفكاهة مع بدايات نتاجات الشعوب للفنون ، ففي عهد اليونانيين والإغريق والفرس كانت الفكاهة فّناً أدبّياً مؤثِراً ، - فقد بدأت الفكاهة الغربية مع إفلاطون وأرسطو الذي رأى أنّ القبحَ غير المقزّز ، هو مكوّن أساسي في الفكاهة [١٢]. وفي الدراما السنسكريتية القديمة : عُرفت الفكاهة بوصفها واحدة من فنون الهند ، وكذلك في الثقافة الفارسية كان للدعابة ذوق شخصي ، فمَن لا يمتلك روحَ الدّعابة لا يجد معنى للدعابة أو الفكاهة ... أمّا الأدبُ العربي فقد عَرَف الفكاهة منذ العصر الجاهلي في النتاجات الشعرية والنثرية ، وقد عُرِف هذا العصر بضَعف الأدب الفكاهي لانتشار الهجاء فيه ، وبخاصة عند الحرب والسخرية من الأعداء ، ويُعرف الأدب الجاهلي بتركيزه في الكلام ، وشهرته بالقِصار منه؛ لارتجالهم للكلام الفني على البديهة وعدم التكلّف ، وذلك ربما لإنشغال العرب آنذاك بالنزاعات والحروب فلم يجدوا مُتّسعاً للفكاهة ، وذلك فإنّ السخرية والمزاح بحاجة إلى أسلوب المبالغة والتفصيل والإسهاب بخلاف اللون الأدبي الجاهلي

في الخطابة والدعوة عبرها إلى الوحدة والتكاتف ونبذ التفرقة ، وتضمينها خلاصة تجارب الخطيب ليفيد منها قومُهُ ، وكلُّ ذلك لا ينسجم مع لَوْن الفكاهة والسخرية والمزاح . مع كلّ ما تقدم لا يخلو الأدب الجاهلي من شذرات فكاهية شعرية ألوان ومعيّنة من النثر الفني.

ومثال الفكاهة الشعرية : قول زهير بن أبي سلمى في قصيدته التي عُرِفت ب(شرّالناس) وكانت تهديداً لقوم الحارث بن ورقاء الذين كان عندهم (يَسار) راعي إبل زهيرأسيراً .. وكانت ابياتاً هجائية تضمنّت الفكاهة : (١٣)

تعلّـــــم أنّ شرَّ الناس حـــيٌّ
ينادي في شعارهم يَسارُ

ولـــــــــولا عَسْبهُ* لرَدَدتُموه
وشـرُّ منيحةٍ عْسبٌ(*) مُعار

إذا جَمَـــحَـــتْ نساؤكـــــم إليه
أشَـظَّ كـأنـهّ مَسَدٌ مُـغـار

يُبربرُ حين يعـدو من بعيـد
ضئيل الجسم يعلوه انَبِهار

يُعَيرّهم الشاعر بأنْ تسيّد الأسير عليهم ، ويسخر منهم لتعليله سبب ذلك حاجة نسائهم إلية . ولم يقتصر الأدب الفكاهي الجاهلي على الشعر فحسب ، وإنّما ، كان القَصص الفكاهي أيضاً : كالمُلَح ، والنوادر ، والطرائف والامثال التي احتلّت مكانة بارزة في التُراث العربي ، ومن أسباب انتشاره أنّه كان يُنقل شفاهاً بين الناس عامتهم ، حتى إنّ بعض القبائل كان عندهم ما يُسمّى بـ (مُضْحِك القبيلة) ، و (مُضْحِكة القبيلة)، وممّا ورد من الامثال الساخرة :

((ذكّرني فوكِ ، حمارَي أهلي)) (١٤) ، وقِصّة هذا المثل : هي أنّ مُطْلِقَه ذهب ليبحثَ عن حمارين له ضَلّا ، فوجد امرأةً أُعجب بها ، فلما أزاحت النقِاب عن وجهها رأى فَمَها قبيحاً فأعرض عنها ، وكان ذلك سبباً لتذكّره المهمة التي ذهب من أجلها ، فأطلق المثل ، وولّى ، وهو يقول :

ليت النقابَ على النساء محرّم
كيلا تَغُـرَّ قبيحـةٌ إنسانـا

ومثل آخر : ((رُبَّ كلمة تقول لصاحبها : دَعْني)) ، وأمثال كثيرة أخرى بهذا الصدّد وإذا انتقلنا إلى الفكاهة في العصر الإسلامي نجد أنّها انتعشت مع بداية العصر ، حيث الإستقرار النسبي، وخير دليل على ذلك قول نبيّ الأمة – صلّى الله عليه وآل وسلّم - : ((رَوِّحوا عن القلوب ساعة بعد ساعة، فإنّ القلوب إذا كلّت عميت)) (١٥)

. يظهر من الحديث النبوي الشريف إنّ الإسلام لا يَنهى عن الفكاهة بشرط احترام الآخر وعدم المساس بشخصه ومن الناحية العملية فقد كان الرسول الأعظم متبسِّماً دائماً ، فقد قال الحارث : ((ما رأيتُ أحداً أكثر تبسُّماً من رسول الله)) [١٦] . وفي ذات مرّة أتَتْ للنبي امرأة عجوز – وفي رواية إحدى عمّاته – تقول: ((أدعُ اللهَ أنْ يُدْخِلني الجنّة)) ، فقال النبي: ((يا أمَّ فلان - إنّ الجنّةَ لا تدخلُها عجوز))، فبكت فقال : ((أخبروها : لا تدخلُها وهي عجوز،وإنّما تصبح فتاة))[١٧] لقوله تعالى : ((إنّا أنشأناهنّ إنشاء . فجعلناهنّ أبكارا، عُرُباً أترابا))[١٨].وهو القائل : ((إنّي لأمزَحُ ولا أقول إلاّحَقّا)) [١٩] ، فكان مزاحاً ملتزماً. فالفكاهة في صدر الإسلام تشترط عدمَ السخرية والإستهزاء بالآخرين بدليل الآيات الكريمات ، ومنها : ((يا أيّها الذين آمنوا لا يسخر قوم من قوم)). واستمَرّت الفكاهة الأدبية في صدر الإسلام على هذا المنوال حتى العصر الأموي إذ انطلقت الفكاهة إلى حيّز أوسع لاستقرار الحياة تقريباً ، وثراء الشعراء الكبار ، فبرز لون أدبي جديد هو (النقائض) وصارت السخرية من الآخرين الشغلَ الشاغل للفكاهة التي تميّزت بشدّتها لما لقته من ترحيب وتشجيع من الخلفاء الأمويين وقادة المجتمع ،علماً أنّ قصائد النقائض لا تتضمّن الهجاء والسخرية فحسب ، وانّما الفخرأيضاً، فيفاخر الشاعرُ بعشيرته وإبداعِه الشاعرَ الآخر ، وهي قصائد يَرِدّ بها الثاني على الأول بنفس الوزن والقافية وبهجاء الآخر والفخر بشخصه وعشيرته أيضاً وأشهر أصحاب النقائض هم أشهر شعراء العصر الاموي : جرير والفرزدق والأخطل، والراعي النميري ... وقبل الإستشهاد بنماذج شعرية ضمن هذا اللون لا بدّ من ذِكر حقيقة مفادها : أنّ الدافعَ الأساس للنقائض هو التكسّب وربما بعداوة مفتعلة ، كما كان بين جرير والفرزدقَ فهما من قبيلةَ واحدة (تميم) ومن فرعين منها ، والدافع لعدائهما (الظاهري) كسب الشهرة والمال ، وقد ساعدتهم عوامل متعدَّدة للإستمرار بهذا النشاط ، منها :

١- مكانة الشعراء آنذاك وأهميتهم في غرضي المديح والهجاء عشائرياً ومذهبياً ، لاسيما في حالة نشوء الأحزاب في هذا العصر : فكان حزب الأمويين ، وحزب العلويين ، والخوارج وغيرهم .

٢- إغداق الأموال الطائلة على الشعراء الكبار – خاصة- من قبل الخلفاء والأمراء ومتنفذي الحكم وكبار رؤساء العشائر حتى غدا التكسّب بالنقائض المصدرَ الرئيس لعيش هولأ الشعراء .

٣- إهتمام الناس – بعامتهم – بالشعر وبهذا اللون – خاصة – وإقامة الأسواق الشعرية للتفاخر والتهاجي، .... ومنها سوق المَرْبِدِ في البصرة وهو أشهرها؛ والكُناسة في الكوفة وغيرهما .

٤- عدم الإلتزام الديني لهؤلاء الشعراء الذي يمنعهم من السب والشتم والتنابز والسخرية التي نهى عنها الإسلام بقرآنه وعلى لسان نبيه ، والمؤمنيين .

٥- عدم التزام الحكّام بالناحية الشرعية الدينية التي توجب عليهم منع شيوع هذه الممارسات المنافية لروح الإسلام بوصفهم حكام الأمة .... .

أمّا الدليل عللى أنّه هجاء مفتعل وبخاصة بين جرير والفرزدق فهو:

أ- انتماؤهما لقبيلة واحدة .

ب- ولمدح كل منهما الآخر عندما يُسال عن شاعريةَ غريمه ، ويدلّ على ذلك قول جرير عندما سُئِل عن شاعريةَ الفرزدق : ((كلانا ننهل من بحر واحد ...) وبموت الفرزدق انتهى هذا التهاجي ، وقد رثاه جريرة بقافيته الشهيرة ، ومنها [٢١] :

لعمري لقد أشجى تميماً وهدّها
على نكبات الدهر موتُ الفرزدق
عمادُ تميمٍ كُلِّها ولسانُها ونا
طِقُها البذّاخُ من كل منّطق

ج- سفرهما سوية من العراق الى الشام لملاقاة الخليفةَ وانسجامهما وعودتهما سويّة .

ومن أمثلة نقائضهما : قصةَ مجلس عبد الملك والكيس :

فقد جمع عبد الملك بن مروان شعراء النقائض الثلاثة وأبلغهم بمنحه كيس النقود لأشعرهم ، وببيت واحد لكل منهم ... فقال الفرزدق :

أنا القطران والشعراء جربى
وفي القطران للجربى شفاء

فرد عليه الأخطل بقوله:

قإن تك زقّ زاملة فإني
أنا الطاعون ليس له شفاء

أما جرير فقال :

أنا الموت الذي آتي عليكم

فـــليس لهارب منّـــي نجاء

فكان الكيس من نصـيب جرير، وقال عبد الملك: ((الموت يأتي على كل شيء))

أمّا في العصـر العباسـي فقد برز التنظير للفكاهة الجادّة والسـخرية ، وأوّل مَن ولج هذا اللون الأدبي الجاحظ (ت ٢٥٥ هـ) بأسـلوبه الإسـتطرادي في جُلّ كتاباته ، وكان للنشـاط الفلسـفي الذي عُرف عن الجاحظ المعتزلي – دور كبير في إبداع هذا اللون الادبي ((بل هو أسـبق الكتّاب العرب احتفالاً بالفكاهة ، وحشـداً لها في طيّات مؤلفاته ، وهو صـاحب مذهب مشـهور في مزج الجدّ بالهزل ، فهو رائد للأدب الفكـاهي عنـد العرب ، وأوّل من ابتكر هذا الأسـلوب ، وأسـبق مَن عُني بمراعاة ميول قرّائه ، وإدخال السـرور عليهم إبقاءً على نشـاطهم وإبعاداً للملل والسـأم عنهم))[٢٢]. وخير دليل على ذلك ما ورد في رسالته (التربيع والتدوير)[٢٣]. وكانت رسـالته تدور حول التندّر على شخصية معاصرة (أحمد بن عبد الوهاب) إبتدعها الجاحظ ليقِدمَّ له مائةَ مسـألة طريفـة في علوم مختلفـة ؛وأخفق هـذا الشـخص في الإجابة الوافية فأشـار عليه الجـاحظ بمراجعـة مؤلفـاتـه، ليتوافر على الإجابة العلمية الوافية لأسـئلته الفكاهية ، والتي تدلّ على سـعة ثقافة الجاحظ التي تجـاوزت الثقـافـة العربيـة إلى ثقـافـات الشعوب الأخرى ،مشيراً في رسالته هذه إلى معتقدات تلك الشـعوب المبثوثة في أسـاطيرها وبعلوم مختلفة وعلى هيئة نوادر ، والفكـاهـة في مجـالات متعدّدة ، منهـا : الهندسـة، والفلسـفـة، والطب ،والموسيقى، وعلوم أخرى .... أمّا سبب تسمية الرسالة بـ(التربيع والتدوير) فلأن الجاحظ وهو يتندّر على غريمه (أحمد بن عبد الوهاب) وصـف شـكله القصـير المبطان ، بالوقت الذي يدّعي فيه الأخير بأنّه طويل رشيق ... وقد تبع الجاحظ بهذا اللون الأدبي الفكاهي الموجّه أدباءٌ آخرون ، فكانت مثلاً رسـائل أبي بكر الخوارزمي في تندِّره على بديع الزمان الهمداني [٢٤] .. ومن العلمـاء الـذين تنـاولوا الأدب الفكاهي في العصَـر العباسـي عبدالله بن المقفّع (ت١٤٢ هـ) وقد لاقى حتفه لاسـباب منها فكاهية مثل : دخوله على سـفيـان – الرجـل المتنفـذ في مملكـة المنصـور – وهو يقول :((السلام عليكما)) ويقصد شخص سفيان وأنفه الكبير فحقد الأخير عليه فأوغر صـدر المنصـور على ابن المقفّع في قضـية (عيسـى وسـليمان العبـاسـيين) وتوجيههمـا بمـا يسـيء للمنصـور ... ومن أهم جهود ابن المقفّع الأدبية ترجمته للكتاب الفارسـي (كليلة ودمنة) وهو من أشـهر مؤلفات العصـر

العباسي الأدبية الفكاهية بعد كتاب الجاحظ (البخلاء)، وقد ضمّن ابن المقفّع كتابه حكايات على ألسنة الطير وبعض الحيوانات الأخرى وبشكل فكاهي موجّه ليتّعِظ الناس .... وظهر كتّاب آخرون فكاهيون منهم ابن الجوزي وغيره في هذا العصر .... أمّا الفكاهة في الشعر العباسي فقد تناولها كبار شعرائهم بشار بن برد والمعرّي وابن الرومي وغيرهم ... ومثال ذلك أبيات لابن الرومي ، منها [٢٥]:

أمثلُ عمرٍو يُهين مثلي

عمداً ولا تُنضّى النصول

يا عمرو سالت بك السيول

لأُمِك الويل والهبول

وجهك يا عمرو فيه طول

وفي وجوه الكلاب طول

ومن علماء الأدب في العصر العباسي الذين استهوتهم الفكاهة : ابن قتيبة (ت ٢٧٦هـ) ، فقد ذكر في مقدمة كتابه (عيون الأخبار) : ((إنّ كتابنا هذا سينتهي بك إلى باب المُزاح والفكاهة وما روي عن الأشراف والأئمة فيهما ، فإذا مرّ بك أيُّها المتزمّت حديثٌ تستخِفّه أو تستحسنه أو تعجب منه ، فاعرف المذهب فيه وما أردنا به ، واعلم أنّك إن كنت مستغنياً عنه بتنسّكك ، فإنّ غيرك ممّن يترخّص في ما تشدّدت فيه ، محتاج إليه ، وإنّ الكتاب لم يُعمل لك دون غيرك ، فيهيَّأً على ظاهر محبتك ، ولو وقع فيه توقّي المتزمتين لذهب شطر بهائه ، ولأعرَضَ عنه مَن أحببنا أن يُقْبلِ إليه معك)) [٢٦] . أمّا في العصر الوسيط فقد كثرت أساليب الفكاهة والسخرية والهزل بأساليب وألفاظ متدنية في أكثرها ... نستغني عنها .. .

أمّا في العصر الحديث فقد استعاد الأدب الفكاهي مكانته وتخصّص أدباء ملتزمون للإبداع في هذا اللون الأدبي على الرغم من تأثّرهم بالآداب الأوروبية ، ومن الجدير بالذكر أنّ بعض النقاد والأدباء الأوروبيين لهم نظرة منافية لهذا التوجّه ، ومنهم (لامارتين) الذي قال :

((إنّ الشعب الجاد لا يؤسِس شعره على الهزل ، والجديّة في كل شيء جزء من الجمال ، والإنسانية ليست ضرباً من التهريج)) [٢٧] . هذا رأي آحاد ... ولدى النقاد العرب المحدثين آراء تختلف في رؤيتها تماماً عن رؤية (لامارتين) وغيره ، ومنهم د. عبد العزيز شرف إذ يقول: ((الأدب الفكاهي يقوم بوظيفه تطهيرية ، حيث يزيل من النفس أدران الهم والقلق ، واليأس والحقد والإحباط))[٢٨] . فشرط الفكاهة الأدبية أنْ تكون جادّة ناقدة نقداً توجيهياً بأسلوب محبّب للنفوس يُتقبلّ بسهولة من قبل الناس عامة ، وله وظيفة أخرى هي إراحة النفس في

خضم ظروفنا القاسية على الصُعَّد كافة ، هذا وقد برز أدباء عرب كثيرون منذ بداية العصر الحديث التزموا الأدب الفكاهي وأجادوا فيه ، ومنهم إبراهيم المازني ؛ والشيخ علي الطنطاوي من مصر ، ومعروف الرُّصافي والزهاوي وغيرهم من العراق ، ومن أدباءالفكاهة العراقيين والعرب المعاصرين أحمد مطر وربيع السملالي وعبدالله البردوني وغيرهم .

المبحث الثاني: من الخطاب الفكاهي الموجّه في شعر الرُّصافي :

معروف عبد الغني الرُّصافي(١٨٧٥-١٩٤٥ م) من شعراء الإحياء والنهضة العرب،شعره مباشر غالباً ومعانيه معاشة ، ونقده للواقع مرير:وهو نقد مباشر للحكم العثماني وللإستعمار البريطاني وواجِهَته الحكم الملكي وذلك بأساليب مختلفة منها : التفكّه والسخرية ، ونقده لا يقتصر على الناحية السياسية فحسب بل يتعدّاها إلى النواحي الدينية والإجتماعية ... فكان الشاعر الرصافي داعية من دعاة الإصلاح السياسي والاجتماعي تتجاذبه كثير من الصفات الإنسانية ((ولعلّ أبرز هذه الصفات الإنسانية التي اتّسمت بها حياته السياسية ووضعت اسمه في مدارج البقاء والخلود ، صفتان هما جرأته وإباؤه)) [٢٩] ... . هاتان الصفتان سَاعدتاه على ولوج عالم الفكاهة الجادّة و بالذات لون السخرية السياسية ، ودافعه في ذلك حب الوطن ليس من أجل منصب معين ، فقد زهد في مقعده البرلماني أكثر من مرّة. وأنشد في القضايا الوطنية دون طائفية ويتحسّس المآسي الإجتماعية فقد ((حمل الرُّصافي قلمه ، وكتب موجِّها كلمَاته الى الهدفَ وهو يعرف ما يريد ، يريد أن يثور ، يريد أن يصحِّح.. يريد أن تفعل كلماته ما تفعل الخميرة في العجين)) [٣٠] . فكان في معرفته حال العراق المأساوي ومحاولته لخلاصه نسيجَ وَحْده ، فكان رجالاً في رَجل ومدرسة قائمة بذاتها ، يسعفه بنضاله الفكري والغني شعره الفكاهي وثقافته التي ترجع الى نشأته وتعليمه في بَدْء حياته ، فقد اختلف الى مدارس دينية متعدّدة في بغداد وتتلمذ على يد شيوخ ذوي كفاية مثل عباس حلمي القصّاب والشيخ قاسم القيسي، ثم لازمَ الشيخ العلاّمة محمود شكري الآلوسي لمدة اثني عشر عاماً، وتخرّج عليه . وكان يرتدي العمامة وهوزِيَّ العلماء – آنذاك – وسّماه شيخه الآلوسي(معروف الرصافي) ليكون في الصلاح والشهرة والسمعة الحسنة مقابلاً لمعروف الكرخي . وقد عرف عن والديه شدّة تقواهما وإيمانها [٣١] ... وقد عمل مدرساً للأدب العربي في العراق وعُيّن مدرساً لمادة اللغة العربية في الكلية الشاهانية ومحرّراً لجريدة (سبيل الرشاد) في اسطنبول ، ثم انتخُب عضواً في مجلس (المبعوثان) عام

١٩١٢م . ثم مدرساً لمادة اللغة العربية في دار المعلمين في القدس ، وبعدها استاذاً بدار المعلمين العالية ببغداد عام ١٩٢٧م ولم يكن الرُّصافي شاعراً فحسب؛ بل مؤلِّفاً في قضايا اللغة والأدب ، ومن ذلك : كتابه (دفع الهجنة في ارتضاخ اللكنة) و ((نفح الطيب في الخطابة والخطيب)) و ((محاضرات في الأدب العربي)) وهو مجموعة من المحاضرات ألقاها على طلاّبه ... وله أيضاً : ((دروس في تاريخ اللغة العربية)) و((علي باب سجن أبي العلاء))وكتاب ((الآلة والإدارة وما يتبعهما من الملابس والمرافق والهنات))و((دفع المراق في كلام أهل العراق)) وكذلك مخطوطات ، منها : ((خواطر ونوادر)) و ((الأدب الرفيع في ميزان الشعر)) و ((الرسالة العراقية)) و (آراء أبي العلاء)، وينسب له ((الشخصية العراقية أو حلّ اللغز المقدّس))[٣٢] ؛ وهذا المخطوط الأخير ربما لم تثبت عائديته الى الرُّصافي لأنّ ذلك يتناقض مع ماورد الشاعر الجواهري عنه عند احتضاره من نُطْقِه بالشهادتين وما يدلّ على تأكيد إسلامه على الرغم من اختلافه مع الآخرين بالقشور – ما ورد في وصيته؛ وما نظم من شعر إيماني ، فقد أدركته المنية في ١٩٤٥/٣/١٦م ، وهو يردّد : ((أنا والحمدلله مسلم مؤمن بالله ورسوله محمد بن عبدالله- صلّى الله عليه وآله وسلّم – إيماناً صادقاً ، لا أُرائي فيه ولا أداجي ، إلاّ إنّي خالفت المسلمين فيما أراهم عليه من أمور يحسبونها من الدين ، وهي ليست منه إلاّ بمنزلة القشور من اللباب ، ولا يهمني من الدِّين إلاّ جوهره الخالص ، وغايته المطلوبة التي هي الوصول إلى شيءٍ من السعادة في الحياة الدنيوية والحياة الأخروية ما أمكن الوصول إليه من ذلك بترك الشرور وعمل الصالحات)) [٣٣]. وللأديب حنّا الفاخوري رأيٌ بوجهة نظر الرُّصافي الدينية ، فيقول : ((أُتهم الرُّصافي في دينه كما اتهم الزهاوي، وما هو بالكافر ولا المارق ، وإنّما هو المؤمن الذي لا يرى الدين في القشور والتعصّب والجهل ، والدين في نظره هو الإيمان النيّر ، والعمل الخيّر ، إنّه ينكر التزمّت ، والتشدّد، وينكر الإكراه في الدين ، كما يتنكّر للجمود العقلي ...))[٢٤] . ومما يؤكد وجهة نظر المشككين بنسبة المخطوط اللاإيماني للرُّصافي هو ظهوره بعد موته بسنوات طويلة . ومن ((التهم الأخرى))- كما يراها محققون- ما أورده . د. بدوي طبانة من تشكيكه بنسبه العربي وادعائه بأنّه كرديُّ الأصل [٣٥] . ولم تكن تلك تهمة لو صدح بها الرُّصافي نفسُه عندما سُئل عن نَسَبه ، إذْ أجاب :

قالوا: ابن مَن أنت يا هذا؟ فقلت: لهم

أبي امرُؤٌ جَدُّه الأعلى أبو البشر

قالوا: فهل نال مجداً؟ قلت: واعجبي

أتسألوني بمجدٍ ليس من ثمري

؟

وقد انبرى كاتب لتأكيد نسب الرُّصافي العربي لكنّه لم يدعم رأيه بوثائق دالّة ، واكتفى بالقول : ((فإنّ المحققين المنصفين قد أدلَوا بالقول الفصل في هذه المشكلة الموهومة ، وقالوا : إنّه عربيُّ الأصل من جهة الأم والأب))[٣٦] . ويستمر هذا الكاتب في الدفاع عن الرُّصافي ، بقوله : ((لم يستطع أغلب الكتّاب الرسميين أنّ يتصدّوا له في حياته لأنّهم يعرفونه حقّ المعرفة ، وكانوا يخشون سطوته وهجاءَه فآثروا أن يغمزوه وهو في قبره))[٣٧] . وبهذا الصدد لا بُدَّ من القول : بأنّ العراقيين لا فرق بينهم وهم من أصول وقوميات مختلفة ولا يعيب المبدع العراقي أن يكون من أصل غير عربي ... وقبل الإستشهاد بشعر الرصافي الفكاهي ، نورد نقطتين : الأولى : رأي الشاعر بالشعر ، إذ قال عنه : ((إنّه مرآة في الشعور تنعكس فيها صورة الطبيعة بوساطة الألفاظ إنعكاساً يؤثّر في النفوس إنقباضاً أو انبساطاً)) .

ثم ختم الرُّصافي رأيه في الشعر قائلاً : ((والمنظوم سمي شعراً ... للغناء))[٣٩] . وتحدّثَ الرّصافي عن الشعر المنثور ، بقوله : ((وأمّا الشعر المنثور العاري عن الوزن والقافية ، فهو شعر بالمعنى الأعم ، أي شعر بمعانيه التي تعمل في النفس ما يعمل الإنشاد المقترن بالنغم والإيقاع ... وسُمي الشعر المنثور بالشعر الصامت لعدم اقترانه بالغناء والرقص ، وسُمي المنظوم بالناطق لاقترانه بذلك ، أمّا أنا فأستحسن الشعر المنثور وأقول به حيث إنّه خير واسطة لإنباط القرائح وإثارة العواطف))[٤٠]. فهذه نظرة فلسفية للرصافي تتعلّق بالشعر العمودي والشعر المنثور .

الثانية: للرُّصافي قصائد كثيرة في موضوعات مختلفة غير الفكاهة والسخرية ، وكلّها تصبّ بهدف واحد هو وطنيتهُ وما يخدمها من أغراض شعرية مختلفة ، منها :

أ- في وصفهِ عظمة الخالق – عزّوجل- وهذا ما يؤكد عدم شِركِه ويعضّد الرأي القائل بالشك في نسبة مخطوط (الشخصية المحمدية) إليه ، فقال [٤١]:

أُنظر لتلك الشجرة

ذات الغصون النضرة

كيف نمت من حبّةٍ

وكيف صارت شجرة

إبحث وقل : مَن ذا الذي

يُخـرج منـها الثمـرة

ذاك هـــو الله الـــذي

أنْـعُـمُــه منـهـمــرة

ب- وفي نظرته للحِجاب : يقول [٤٢] :

وأكبُرما أشـــكو من القوم أنّهم
يَعُدُّون تشديدَ الحجاب من الشرع

وكذلك قال :

والوجه إن كان الحياءُ نِقابَهُ

أغنى فتـاة الحـيّ أن تـتـنـقبا

يبدو أنّ الشـــاعر يؤكد على كشـــف النقاب وليس الحجاب بشكل عام ، ويصفه ((بتشديدِ الحجاب)) في البيت الأوّل بدليل البيت الآخر ، إذ يصـــرّح به بالنقاب ، وواضـــح أنّ الشـــرع يبيح للمرأة كشـــف الوجـه والكفين .. ولكنّ المغـالاة في الحجاب يراها الشاعر ظاهرة سلبية ، وقد عبّر د. إبراهيم خليل عن نظرة الرّصـافي للحجاب بأنّ له فلسفة خاصة بهذا الصدد ، فقال : ((وقد دعا الرّصافي في شعره إلى نبذ الحجاب ، وله في ذلك فلســـفة قد لا يتفق معه فيها كثير من المســـلمين ، ومن ذلـك أنّ الله خلق الإنســـان مثلما خلق الحيوانَ والطيرَ بيّن الوجـه، فلمـاذا يتمّ إخفاؤه ؟)) [٤٣]. وهذا يؤكد وجهةَ نظرنا في أنّه يقصد كشف النقاب وليس الحجاب عامة ...

ج- في وصفه للتكبّر ، قال[٤٤] :

أنت ابن فقر الى أحد

بهنّ تّدعي بابن الثراء

وبَّخَ الرُّصـــافي الثريَ المتكبّرَ مســـتعملاً أسـلوباً فنيّاً مناسـباً هو الطباق والمقابله : (ابن فقرَ- ابن الثراء) .. ومن أبيـات الحكمة، أنشد: [٤٥].

للهَ درُّ المـــــوت من خطة

فيها استوى ذو العي والمُصْقِعُ

يـخـــون فيـهـا القول منطقه

كـــما تخـون البطـلَ الأدرعُ

وليس في الإمكان عند النُهى

أبــدعُ ممـا خـلق الـمـبــدعُ

أبيات حسنة الأداء وفصيحة اللفظ وجميلة الصـــياغة بارعة المعنى في شـــحذ همم الشـــباب وضـــرورة عدم التشـــدّق بمآثر الماضي فقط ، وقال [٤٦]:

أرى مستقـبــل الأيام أولى

بمطمح مَن يحاول أن يسودا

فما بلـغ المقاصدَ غيرُ سياع

يـردّد فـــي غـدٍ نظراً سديـدا

فوجّـه وجهَ عزمـك نحوآتٍ

ولا تلفت الـى الماضين جيدا

وهل إن كان حاضرنا شقيّاً

نسـود بكون ماضينـا سعيدا

وفي القضـــايا الإجتماعية المأســـاوية أنشـد قصـيدته الشـهيرة (اليتيم) وقد التقط حالة الفقرو اليتم وهو يصـف أرملة وبنتها الرضيعة اليتيمة ، فقال :

لقيتهـــا لـيتـني ماكنت ألقاها

تمشـــي وقد أثقل الإملاق ممشاها

تمشي وتحمل باليسرى وليدتها

حملاً على الصدر مدعوماً بيُمناها (٤٣)

تميّز الرّصـــافي بتناوله القصـــص الشـــعري وهو يلتقط الظواهر الاجتماعية السـلبية فقد قال عنه : د. داود سـلّوم وهو يتناول الرومانتيكية والواقعية، وأثرها في القصـــص الشـــعري في أدب الزهـاوي والرّصـــافي : ((الشـــعر العراقي الحديث يتميز بظهور القصص الشعري فيه وهذه الظاهرة لم تكن معروفة في الشعر العربي الحديث في أول حركة النهضـــة، وقد شاعت بعد شيوعها في الشعر العراقي))(٤٨)، وقد تناول الشـــعر القصـــصـــي عند الرّصـــافي والزهاوي الدكتورمصـــطفى بدوي ، فقال :

((إنّ بعض الشـــعراء مثـل الزهـاوي والرّصـــافي اسـتخدموا الشـكل الروائي) بهـذا الغرض الإجتمـاعي على شـــكـل (قصص قصيرة شعرية) تعالج الجوانب الأخلاقية الواضـــحة في الحياة المتعلّقة بالحياة الاجتماعية والسلوكية)) (٤٩) .

يتميز شـــعر الرصـــافي بالإنســـجام الصادق بين شعره وسلوكه في الحياة وهو القائل: (٥٠)

عاهدت نفسي والأيام شاهدة

ألاّ أمُرَّ على جور السلاطين

ولا أصادق كذّابـاً ولو ملكاً

ولا أخالط أخوان الشياطين

ولـه قصـــائد أخرى كثيرة في أغراض متعـدّدة تـدلّ على وطنيتـه وإنســـانيتـه وحرصـه على خروج العراق من ظروف الجهل والفقر والظلم وتقييد الحريّات؛ وقَد عبّر عن ذلك نقاد عرب كثيرون ، ومنهم الـدكتور شـــوقي ضـــيف ، بقولـه عن الرصـــافي كان : ((يكتظّ قلْبه بمشـــاعرَ إنســـانية ورقيقة نراها ماثلة في كل جانب من ديوانـه ، إذ يدعو دعوةً واســـعة الى التعـاطف الإنســـاني والبرِ بـالفقراء

والمعوزين ، وأيضاً فإنّه يدعو الى التخلي عن كلّ ما يشين أخلاق قومه))[٥١] .

أمّا شعر الرصافي الفكاهي الموجّه فنختار نماذج معيّنة منه :

قال في ذمّهِ السلطان العثماني عبد الحميد الثاني متهكماً [٥٢].

فدتك الناس من ملك مطَاعٍ

أين ما شئت في طرق التباع

ولا تخشَ الإله ولا تراعِ

فما هذي البلاد سوى ضياعِ

وقال أيضاً : [٥٢]

تنعّم في قصورك غيرَ دار

أعاش الناس أم هم في بَوار

يُلحظ أنّ الرُّصافي منسجم تماماً مع ما يدعو إليه عبر سلوكه الحياتي، فنراه قد عارض السلطه الحميدية وهو في شبابه على الرغم من ظلم تلك السلطة وطغيانها- وقد عبّر عن ذلك حنّا الخوري، بقوله [٥٣] : ((وأمّا سياسة الرُّصافي فكانت مقاومة صريحة وجريئة للإستبداد الحميدي ، ودعوة الشعب إلى مناهضته وتحطيم جبروته)) ولما يئس الرُّصافي من سياسة السلطان التجأ إلى الدستور العثماني الذي تمنّى أن يلبّي بعض طموحات العرب ، فقال ساخراً : [٥٤] .

فهل إيّها الدستور تسمع شاكياً

بك اليوم يرجو نهضة الشرق

فصادفتَ منّا أمّةً تعشّقت

لقاءك حتى تجاوزتْ مبلغ العشق

قال ذلك بعد يأسه أيضاً من جمعية (الإتحاد والترقي) والتي توسّم فيها الوسيلة للتخلّص من السلطان عبد الحميد [٥٥] ، وقد سيطرت على مقاليد الأمور في الدولة العثمانية لكنّها سرعان ما خالفت مبادئها ((فلما قلب الإتحاديون ودعاة القومية (الطورانية) الإعتدائية للعرب ظهرَ المجَن ، وكشفوا القناع عن حقدهم الدفين جاشت نفس الرصافي المرهقة، فشكاهم إلى الدستور))[٥٦] . ويبدو أنّ سخرية الرُّصافي ذات روح فكهة غالباً ليست مرّة لاذعة ، يهدف عبرها غلى التركيز على ظلم السلطان والطبقة الحاكمة آملاً بتجاوزه ....

بعد الإستعمار العثماني جاء الاستعمار البريطاني للعراق فتصدّى له الرُّصافي ، بقوله :

أيّها زعماء الغرب هل من دلالة

لديكم عى غير الخديعة والكذب؟

ويسخر من زعماء الغرب لهتكهم الأعراف وظلمهم وتجاوزهم على حقوق الشعوب، فاستعمل أسلوب النداء (أيّها) للتنبيه، ثم أسلوب الإستفهام الإنكاري (هل من دلالة) : ... وفي عام ١٩٢٢م عُقدت إتفاقية بين العراق والإنكليز، فسخر الرُّصافي من هذه المعاهدة ، لأنْ لا أمان من عهود الإنكليز،فقال [٥٨] :

والعهد بينِ الإنكليز وبيننا

كالعهد بين الشاة والرئبال

مَن ذا رأى ذئب الذئاب معاهداً

بصداقة حِملاً من الأحمال

استعمل الشاعر أسلوب التشبيه (كالعهد بين الشاة والرئبال) والرئبال من أسماء الذئب – للتأكيد على وفاء الإنكليز ، وعلى الشعب ألاّ يثق بعهودهم ، ثم يستفهم استفهاماً إنكارياً (مَن ذا ...) للغرض نفسه؛ وفي سنة ١٩٢٩م جاء (المستر كراين) مسؤول أمريكي للعراق فتهكّم عليه الشاعر وعلى الحكم الإستعماري الانكليزي ، وبيّن حالة العراق وهو يرزح تحت التبعية له – فقال: [٥٩]

وإذا تسأل عمّا هو في بغداد كائن

فهو حكم مشرقيُّ الضرْع غربي الملابن

وقد سخر الرُّصافي أيضاً من الحكم الملكي (في ظلّ الإنكليز) وعلى رأسه الملك فيصل الأول فقال : [٦٠] .

أهلَ بغداد أفيقوا

من كرى هذي الغِرارة

إنَّ ديك الدهرقد با

ضَ ببغداد وزارة

شأنُها شأن عَجيب

قَصَّرت عنه العبارة

هي للجاهل عِزٌّ

ولذي العلم حَقارة

فكان تفكّهاً سياسياً موجهاً مصوّراً كيفية تنصيب الحكومات العراقية المتحالفة مع المستعمر، ثم استمر في السخرية من شخص الملك مباشرة وأعلن بصراحة أنّ الحكم للإنكليز، وما الملك فيصل الاول – كما يرى الشاعر – إلاّ آلة بيدهم، فقال[٦١].

وليس له من أمره غير أنّه

يعدّد أياماً ويقبض راتباً

يبدو الرُّصـــافي قلقاً على مســـتقبل بلـده، وعـدم إمكـانيتـه التـأقلم مع هـذه الظروف السياسية والإجتماعية السائدة في البلاد ، فعبّر عن ذلك بتوجيه ســـهام نقده اللاذع وســـخطه على الطبقة الحاكمة ملكاً ووزراء ونواباً- مترجماً بذلك ما يعانيه من غصّـــة يحـاول التخفيف منهـا عبر تصـــديه للظَلمةِ الجائرين ، فيســـتمر في نهجه التمردي ، ليقول : (من قصيدة غادة الإنتداب) [٦٢]

قلـــت لـــه:تلك لأوطاننا

حكومة جـــاد بـــها الإنتداب

ظاهـــرها فيها لنا رحمـــة

والـــويل في باطنها والعذاب

مصابنا امسى فظيعاً بها يا

ربُّ ما أفضـــع هذا المصاب

أبيـات تؤكـد إتجـاهـه الوطني، وسـلوكه اليومي المنسـجم مع هذا الاتجاه ((وكان بإمكانه أنّ يغضَّ الطّرَف عمّا يراه، فيحتفظ بأرفع المناصـب ، لكنّ صـدقَه مع نفســـه ومع أبناء وطنه ، كان يحول بينه وبين ذلك ... بينما آثر الرُّصـــافي مغادرة مجلس النواب، احتجـاجـاً على تخـاذل أعضـــائه وعدم جدواه ...))[٦٣] . هذا وقد تجسّـد الصـدق الفني والشـعوري في تهكم الشـــاعر بالســـياســـيين الذين يراهم قدّموا مصـــالحهم الشـــخصـــية على المصـــلحة الوطنية، فقال :[٦٤].

يـا قـــومُ لا تتكلّمـوا

إنّ الكـــلام مُحَّـــرم

نامـوا ولا تستيقضوا

مـــــا فاز الاّ النُـوَّمُ

وتّأخَّروا عن كلّ مـا

يقضي بأن تتقدّمـــوا

ودَعُـوا التفهم جانباً

فالخيرأنْ لا تتفهموا

اسـتعمل الرصـافي أسـلوب الطلب في النداء والنهي ويعقبـه بـأســـلوب التوكيد فكانت أســـلوبية موثّرة لاســـتهلال النص، واشار إلى فهم المستعمرين للحرية ، فكان خطابه للجماهير بأسـلوب مناسـب ، وقد اَعقبـه بـأســـلوب الأمر ، ليســـخر من المستعمر بشكل توجيهي وتحريضي على مقاومة الإستعمار . ويسخر الشاعر أيضاً من الوزراء الجـالســـين على كراســـي الوزارة ، والنـاس تتلقّى الأوامر منهم ، فقال [٦٥] .

بالله يا وزراءَنا ما بالكم

إنْ نحن جادلناكم لم تُنْصفوا

يبدو أنّ الرصافي لما يئِس من الحكومات المتعاقبة استعمل أساليب لغوية مختلفة منها التوكيد : فكان القسم بهذا البيت (بالله) ... ثم أسلوب النداء لجذب الإنتباه فقال : (يا وزراءنا) ، والإستفهام الإنكاري (ما بالكم) ، والشرط (إن نحن) ، والنفي (لم تنصفوا) كل تلك الأساليب في بيت واحد تعبيراً عن هِمَّته العالية وأمله بالتغيير .... وفي مَعْرِض تبيان الرّصافي لتسلُّط الحكومة وتفاهتها ، تاركة مصلحة الطبقة الكادحة ، قال الشاعر متفكّهاً: (٦٦) .

قد انقلب الزمان بنا فأمست

بغاة الطير تحتقر النسورا

الشاعر في هذه القصيدة يبيّن كيف غابت القيم ، ويضرب أمثلة ساخرة (بغاة الطيرتحتقرالنسورا) ، كلّ ذلك في مَعْرِض سخريته من الواقع السياسي المر ... وقصيدة أخرى له بهذا الصدد بعنوان (كيف نحن في العراق) منها : (٦٧)

لنا مَلِكٌ وليس له رعايا

وأوطان وليس له حدود

إنّ تفكّه الرّصافي الموجه ، وهو يهدف لتوعية الشعب وتثويره نحو النضال من أجل نيل حقوقه المشروعة- لاقى اتهاماً بجهل العمل السياسي والدعوة الضرورية الهادفة أحياناً ، فردّ عليهم بقصيدته الشهيرة ، قائلاً (٦٨) .

أنا بالحكومة والسياسة أعرف

أألام في تفنيدها وأعنّف ؟

عَلَم ودستورٌ ومجلسُ أمّةٍ

كلٌّ عن المعنى الصحيح محرّف

أسماء ما لنا سوى ألفاظها

أمّا معانيها فليست تعرف

من يقرأ الدستور يعلم أنّه

وفقاً لصك الإنتداب مصنف

وفي عام ١٩٣٧م عندما طغى نهر دجلة وغرق الكثير مما على ضفافه من بيوت وقصور وفي الجملة منها : البلاط الملكي ، فقد انتهزها الرصافي فرصة للتهجم على الملك فيصل الأول ، بقوله : (٦٩) .

ليت شعري أبلاط أم ملاط

أم مليك بالمخانيث يحاط

غضب الله على ساكنه

فتداعى ساقطاً ذاك البلاط

أبيات عبّر الرُّصـــافي فيها عن نقده اللاذع وسخريته الصـارخة لعظمة الضـرر الذي اصاب الفقراء خاصة، إذ أصبحوا بالعراء بعد غرق بيوتهم بهذا الفيضـــان؛ لم يكن شعر الرصـافي الفكاهي الموجّه ينقد الحالة السياسية في البلاد فحسب وإنّما استعمله لنقد بعض الســلبيات الاجتماعية أيضـــاً، ومنها الاستهانة بالمرأة – فقال :

أيُسْعَد محَياكـم بغير نسائكم

وهل سعدِت أرض بغير سماء(٧٠).

هذا وقد سخر من حالة عشائريه تشبه بيع المرأة أوما يسمى(بالفصلية) بالفصل العشائري، فقال :

ما أهونَ الانثى عللى ذكرانا

فلقد شجاني ذُلُّها وخضـوعها (٧١)

يعبر الشـاعر عن حزنه من محاولات ضـعيفي النفوس لإذلال المرأة وإخضـاعها – دون وجه حق- لإرادة الرجل فهو يرسم لنا وثيقة مهمة تفصـــح عن تلك العادات الســلبية الســائدة في زمانه ... ومن اوجه عدم احترامها يريدونها كائناً من دون رأي صمّاء بكاء ، فقال :

فكيف تظنّ بالأبناء خيراً

إذا نشأوا بحضن الجاهلات

ثم كأنهّ ييأس من جيل ينشـــأ بأحضـــان أمهات أميّات جاهلات ، فيقول :

دع هذه اللغةَ الفصحى فنحن بها

ظلّلْنا نخاطب جيلاً غير موجود

ويستمر يأسه من نهضة الشعب لعلّ ذلك يبعث الهمة في نفوس الناس ، فيقول :

من أين يُرجى للعراق تقدُّمٌ؟

وسبيل ممثليه غير سبيلة (٧٣)

حتى كانَ اليأس يصل غايته حين يقول :

قد كان لي وطن أبكي لنكبته

واليوم لا وطنٌ عندي ولا سكنُ

هذا وقد نفض الشـــاعر يديه من ســـلطة الغرب والحديث حول التمدّن ، وقد أغرقوا العالم بالحرب ، فكلُّ عيوب الدنيا وويلات الناس بســـبب الجبروت الغربي كما يراه الرصافي – لذلك أنشد :

يقولون: إنّ العصـــرَ عصـــرُ تمدّن
فما باله أمسى عن الحق مزورّا

وقد صـوّر الرصـافي حالته المأساوية في نهاية حياته بقوله : ((أنا من آلامي في عذاب مسـتمر وهي في ازدياد عند منقطع ، لقد ضـــاقت بي الحياة حتى أصـــبحت أنادي : ((الا موت يباع فأشـتريه)) (٧٥) ، وكانت دعوته لوضع حد لحياة بائسة يفتقر

فيها الشاعر لأبسط متطلبات الحياة الكريمة، وهو وحيد لا أسرة ولا عمل ولا راتب مجزٍ، وفي عام ١٩٤٥ م أصيب بنزلة برد انتهت بنهاية حياة شاعر وطني ثائر بشِعْرٍ لا يخضع لسلطة ولا يُصفِّق لمغريات الحياة المادية والمعنوية ....

الخاتمة

لكل مرحلة أدبية مميزاتها ، وأسلوبها الخاص بها لتتيح للأدباء الدفاع عن الحقوق الضائعة لأفراد المجتمع ، فكان أدب الفكاهة من أفضل الوسائل في تحقيق هذا الهدف لأنّ لغة الفكاهة تُعَدُّ واحدة من أهم أساليب البيان في الأدب ، لكونها تترك أثراً عميقاً في ذهن السامع والقارىء، إذ تتمتّع الفكاهة الأدبية بمكانة متميّزة في الأدب العربي فقد وقفنا على نماذج منه في عصر ما قبل الإسلام ، والعصور الإسلامية وبخاصة في العصر الأموي كما في آثار الفرزدق وجرير والأخطل ، الذين نجدهم قد أفادوا من هذا الفن لإظهار التفاخر القبلي ، وهجاء الآخرين .. وكذا في العصر العباسي الى العصر الحديث في نهاية القرن التاسع عشر حتى منتصف القرن العشرين ، فاخترنا – نموذجاً لذلك – الأسلوب الفكاهي الموجه للرصافي في العراق ، وكانت النزعة الخطابية المباشرة تتملّك الشاعر وهو يخاطب الظالمين ساخرا، عبر تكرار دلالات الالفاظ القريبة إلى لغة الخطاب السياسي . وقد تميّز الأسلوب الخطابي المباشر للشاعر بألفاظه التقريريّة . والفاظ معجمية، قويّة الجرس ، واحياناً بألفاظ مألوفة يتعاطاها عوام الناس ليتفاعلوا معها لأنّهم المعنيون بأفكار هذه الخطابات ، فهم المعوّل عليهم بمقاومة الظلم وأرباب السلطة ، وقد خاطب الشاعر الحكام العثمانيين لهذا الأسلوب في شبابه ، وكذلك كان سخطه ضد سلطة الإنتداب البريطاني في العراق ، وأدواتهم في الحكم ولم تستطع السلطات المتعاقبة إغراءه بالمناصب أو الأموال لتثنيه عن نقده لهم ، وتحريض الجماهير للقضاءعليهم ، بل تخلّى أكثر من مرّه عن كرسي مجلس النواب ولم يقبل مساعدة السلطات وهو في حاجة ماسّة للمساعدة مقابل مدحهم أو تحسين صورهم ، أو على الأقل الكف عن هجائهم ، والسخرية منهم ، حتى مات فقيراً معدماً وحيداً إلاّ من محبيه ، وزملائه ، ومنهم الجواهري .

ولم يكن الرُّصافي شاعراً فحسب ، وإنّما كان أستاذاً ومربيّاً ومؤلّفاً في اللغة والأدب ، والقضايا الإجتماعية ، ومتحسِّساً معاناة الناس ، فاشتهر بكتابة القصص الشعري ، وقد أشاد بمكانته العلمية كبار الأدباء العرب ؛ فالّفوا بحقّه عشرات الكتب والأحاديث .... فرحل شاعراً وطنيّاً شجاعاً لم تتوقف الدراسات بشأنه ليومنا هذا ...

الهوامش

١- معجم المعاني الجامع ، مادة (خطَب)

٢- لسان العرب ، مادة (خطبَ).

٣- ينظر : مدارات نقدية في إشكالية النقد والحداثة والإبداع : ٢١١-٢١٢

٤- دليل الناقد الأدبي : ١٥٥ .

٥- ينظر: المنهج في الخطاب النقدي: ٧

٦- ينظر : المعجم الوسيط : مادة (فكِه)

٧- ينظر : المنجد الوسيط في العربية المعاصرة : مادة (فَكِهَ) .

٨- ينظر : شبكة مفردات دلالية ، جامعة بيرزيت- ٢٠١٨ م .

٩- ينظر : الفكاهة في الشعر العربي سراج الدين محمد : ٢١١ .

١٠- الأدب الفكاهي، د.عبد العزيز شرف: ١٣ .

١١- معجم المصطلحات العربية في اللغة والادب : ٢٧٦ .

١٢- ينظر : فن الشعر ، أرسطو : ٣٤-٣٥ .

١٣- ديوان زهير بن أبي سلمى ، تقديم علي حسين فاعور: ١٢ .

(*) عَسبَ ، عَسَبَه : أكرى منه فحلاً ينزيه ، أشظَّ : صلب واشتد ، المَسَد : الحجل المُغار : الشديد الفتل، القُطار : القائم المنتصب ، يُبَربِر : يصوّن مثل بربرةَ الفحل إذا أراد الناقة : معجم المعاني الجامع .

١٤- مجمع الأمثال الميداني ، رقم المثل ١٤٥٣ : ٢٧٥ .

١٥- إحياء علوم الدين ، الإمام البخاري : ١٠٢ .

١٦- مرقاة المفاتيح لشرح مشكاة المصابيح : ١٧١/٩ .

١٧- حدائق الأزدهار ، ابن أبي عاصم : ١٢٧ .

١٨- سورة الواقعة : ٣٤-٣٥ .

١٩- إحياء علوم الدين : ١٢٨/٣ .

٢٠- سورة هود : ٤٩ .

٢١- ديوان جرير بن عطية الخطفي ، الناشر : دار بيروت للطباعة والنشر :٣٦ .

٢٢- أدب الفكاهة عند الجاحظ ، أحمد عبد الغفار عبيد : ٢٨ .

٢٣- ينظر : التربيع والدوير ، الجاحظ : ٢٣١ .

٢٤- ينظر: جمع الجواهر ، الحصري : ٢٦٠ .

٢٥- الهجاء والسخرية في شعر ابن الرومي ، ديوان العرب .

٢٦- مقدمة عيون الأخبار : ابن قتيبة .

٢٧- الخشوع الشعري، لامارتين : ١٦١ .

٢٨- الأدب الفكاهي عبد العزيز شرف ، محمد علي مكي :٧٦ .

٢٩- معروف الرصافي – حياته وأدبه السياسي ، د. رؤوف الواعظ : ٨٥.

٣٠- م . ن : ٧٩ .

٣١- ينظر : معجم اللغة العامية البغدادية ، جلال الحنفي : ٣/ ١٩٠ .

٣٢- ينظر : معروف الرصافي شاعر العرب الكبير – حياته وشعره ،قاسم الخطاط وآخرون ١٩٨-٢٠٢ .

٣٣- على سجن أبي العلاء ، معروف الرصافي : ٥٠٤ .

٣٤- الجامع في تاريخ الادب العربي ، حنّا الفاخوري : ١/٤٩٠ .

٣٥- معروف الرصافي – دراسة أدبية لشاعر العراق وبيئته السياسية والإجتماعية ، د. بدوي طبانه : ٢٨٦.

٣٦-الرصافي ذلك الإنسان ، طالب السامرائي : ١١ .

٣٧- م.ن : ١٢.

٣٨- دروس في تاريخ آداب اللغة العربية ، معروف الرصافي : ٦ .

٣٩- م.ن .: ٦٢ .

٤٠- م . ن : ص . ن .

٤١-الموجز في الشعر العربي ، فالح الحجية الكيلاني : ٦٦ .

٤٢- السفور والحجاب ، نظيرة زين الدين : ١٠٧ .

٤٣-مدخل لدراسة الشعر العربي الحديث ، د. إبراهيم الخليل : ١٠٢.

٤٤-الرصافي في أوجّه وحضيضه ، الشيخ جلال الحنفي : ٢٣ .

٤٥-و٤٦ و ٤٧ ديوان الرصافي : ٣٤، ١٢٢،٥٢٦ .

٤٨- من آفاق الأدب المقارن، د. داود سلّوم : ٣٢١ .

٤٩- مختارات من الشعر العربي الحديث ، د. مصطفى بدوي : ١٣ .

٥٠- ديوان الرصافي : ٦٢٠ .

٥١- دراسات في الشعر العربي المعاصر د. شوقي ضيف : ٦٢ .

٥٢- الديوان : ١٧٩ .

٥٣ - الجامع في تاريخ الادب العربي ، حنا الفاخوري : ٤٩٤ .

٥٤- ديوان الرصافي : ٣٩٧ .

٥٥- يُنظر :الرصافي يروي سيرة حياته : ١٧ .

٥٦- على باب سجن أبي العلاء : ١٨ .

٥٧ و٥٨ و ٥٩ و ٦٠ و ٦١ و ٦٢ – ديوان الرصافي : ٤٧٠ ، ١٠٥ ، ٤٦٦، ٦٧٤ ، ٤٥٠، ٦٢ .

٦٣- الادب العربي الحديث – دراسة في شعره ونثره ،د. سالم أحمد الحمداني : ٧٥-٧٧ .

٦٤-٦٥،ديوان الرُّصافي : ٤٥٤،٤٤١.

٦٦- معروف الرصافي ، الثائر والشاعر ، إيليا حاوي : ٩/١ .

٦٧ و ٦٨ و ٦٩ و ٧٠ و ٧١ – ديوان الرصافي ، شرح مصطفى علي : ٢٣٥/٣-١٢٠،٢٣٦ .

٧٢- الرصافي – حياته وآثاره ، الرشودي : ١٥٠-١٥١ .

٧٣- ديوان الرصافي : ٦٥ .

٧٤- الشعر العراقي الحديث وأثر التيارات ، يوسف عز الدين : ٥٠- ٥١ .

٧٥- الآلة والاداة ، الرصافي ، ٥٠٤ .

المصادر والمراجع

- **القرآن الكريم**

١- إحياء علوم الدين ، الإمام البخاري ، تح:عبده القاضي ودمشقية ، دار البشائر ، دمشق ، د. ت

٢- الأدب العربي الحديث ، دراسة في شعره ونثره ، د.سالم أحمد الحمداني، د. فائق مصطفى أحمد ، جامعة الموصل ، ١٩٧٨م .

٣- أدب الفكاهة عند الجاحظ ، أحمد عبد الغفار عبيد .

٤- الأدب الفكاهي ،د.عبد العزيز شرف ، محمود علي مكي ، ط١، الشركة العالمية للنشر ،القاهرة ،١٩٩٢ م .

٥- الآله والأداة ، معروف الرصافي ، تح وتعليق : عبد الحميد الرشوي ، دار الرشيد للنشر ، بغداد ، ١٩٨٠ م .

٦- التربيع والتدوير ، الجاحظ (ت ٢٥٥م) ،عُني بنشره وتحقيقة : شارلوت بلاّت، المعهد الفرنسي ،دمشق،١٩٥٥م .

٧- الجامع في تاريخ الأدب العربي ،حنّا الفاخوري، ط١،دار الجيل ،بيروت- ١٩٩٥م .

٨- جمع الجواهري في المُلح والنوادر ،الحصري الأندلسي ، تح: محمد العزازي،دار الكتب العلمية ،بيروت،د.ت .

٩- حدائق الأزهار ، في مستحسن الأجوبة والمضحكات والحكم والأمثال والحكايات والنوادر ، أبو بكر محمد بن عاصم (ت ٤١٤ هـ) ، دار الكتب والوثائق القومية ، القاهرة ، ٢٠١٤م .

١٠- الخشوع الشعري ، لامارتين .

١١- دراسات الشعر العربي المعاصر . د. شوقي ضيف،ط٢ ، دار المعارف ، مصر ،١٩٥٩م .

١٢- دروس في تاريخ آداب اللغة العربية ، معروف الرصافي ، مطبعة المعارف ، بغداد ، ١٩٦٠ م .

١٣- دليل الناقد الأدبي . د. ميجان الرويلي ، وسعد البازعي،ط١،المركز الثقافي العربي ، الدار البيضاء ، المغرب ، ٢٠٠٥م .

١٤- دليل الناقد الأدبي،د. جيجان الرويلي وسعد البازعي، ،ط١ ، المركز الثقافي العربي – الدار البيضاء ، المغرب ، ٢٠٠٥ م .

١٥- ديوان الرصافي ، شرح مصطفى علي – المجموعة الكاملة، دار مكتبة الحياة ، بيروت ،د.ت .

١٦- ديوان جرير بن عطية الخطفي ، دار بيروت للطباعة والنشر، بيروت ، 1986م .

١٧- ديوان زهير بن أبي سلمى ، شرحه وقدّم له : علي حسين فاعور،دار الكتب العلمية ، بيروت ،د.ت .

١٨- الرصافي ذلك الإنسان ، طالب السامرائي ، مطبعة اللواء ، بغداد ، ١٩٥٩ م .

١٩- الرصافي في أوجّه وحضيضه ، الشيخ جلال الحنفي ، مطبعة العاني ، بغداد ، ١٩٦٢ م .

٢٠- الرصافي يروي سيرة حياته ، د. يوسف عز الدين ، دار المدى ، بغداد ، ٢٠٠٤ م .

٢١- السفور والحجاب ، نظيرة زين الدين ، مطابع قزما ، بيروت ، د.ت .

٢٢- الشعر العراقي الحديث وأثر التيارات السياسية والإجتماعية د. يوسف عز الدين ، المجمع العلمي العراقي ، بغداد ،الدار القومية للطباعة والنشر،القاهرة،١٩٦٥ م .

٢٣- على باب سجن أبي العلاء ، معروف الرصافي ، دار الورّاق للطباعة والنشر ، بيروت ، ٢٠١٨م.

٢٤- الفكاهة في الشعر العربي ، سراج الدين محمد ، دار الراتب الجامعية ، بيروت ، د.ت .

٢٥- فن الشعر، أرسطو طاليس ، ترجمة د. إبراهيم حمادة ، مكتبة الإنجلو المصرية ، القاهرة ، ٢٠٠٨ م .

٢٦- لسان العرب ، ابن منظور (ت٧١١هـ) ، أدب الحوزة، قم ١٤٠٥. هـ .

٢٧- مجمع الأمثال ، أبو الفضل أحمد النيسابوري الميداني ، مج ٢ ، رقم

المثل : ١٤٥٣ ، دار مكتبة الحياة للطباعة والنشر، بيروت ، ١٩٦١م.

٢٨- مختارات من الشعر العربي الحديث ، د. مصطفى بدوي ، مدارات نقدية في إشكالية النقد والحداثة والإبداع ، فاضل ثامر ، وزارة الإعلام ، بغداد ، ١٩٨٧م .

٢٩- مدخل لدراسة الشعر العربي الحديث ، د. إبراهيم خليل ، ط٣، دار المسيرة ، عمّان، ٢٠١٠ م .

٣٠- مرقاة المفاتيح لشرح مشكلة المصابيح ، نور الدين ملا علي القارى(ت ١٠١٤ هـ) ، دار الفكر – بيروت ، د.ت .

٣١- معجم اللغة العامية البغدادية ، جلال الحنفي ، مط العاني ، بغداد ،١٩٩٣م .

٣٢- معجم المصطلحات العربية في اللغة والأدب ، مجدي وهبة ، وكامل المهندس ، ط٢ ، مكتبة لبنان ، بيروت ،١٩٨٤ م .

٣٣- معجم المعاني الجامع ، موقع الكتروني معتمد على معاجم أخرى .

٣٤- المعجم الوسيط ، مجمع اللغة العربية ، ط٥ ، القاهرة : ٢٠١١م .

٣٥- معروف الرصافي ، الثائر والشاعر، إيليا حاوي ، دار الكتاب اللبناني : بيروت (د.ت)

٣٦- معروف الرصافي ، حياته وأدبه والسياسي ، د.رؤوف الواعظ ، دار الكتاب العربي ، القاهرة ، ١٩٦١ م .

٣٧- معروف الرصافي ، دراسة أدبية لشاعر العراق وبيئته السياسية والإجتماعية ، د. بدوي طبانة ، ط٢ ، ومط الرسالة، ١٩٥٧ م.

٣٨- معروف الرصافي ، شاعر العرب الكبير ، حياته وشعره ، قاسم الخطاط وآخرون ، الهيئة المصرية للتأليف والنشر ، القاهرة ،١٩٧١ م .

٣٩- مقدمة عيون الأخبار ، ابن قتيبة ، دار الكتاب العربي ، القاهرة ، ١٩٢٥م .

٤٠- من آفاق الادب المقارن ، د. داود سـلّوم ،ط١، عالم الكتب للطباعة والنشـر والتوزيع ، بيروت ، ١٩٩٨م .

٤١- المنجـد الوسـيط في العربيـة المعاصـرة ، دار المشـرق ، (د. م)٢٠١٦م .

٤٢- الموجز في الشـعر العربي ، فالح الحجية الكيلاني ، دار دجلة الأردنية ، عمّان ، الأردن ، ٢٠١٦م .

الرسائل الجامعية :

١- الشـبكة العنكبوتية : شـبكة مفردات دلالية ، بيرزيت ، ٢٠١٨ م.

٢- المنهج في الخطـاب النقـدي العراقي المعاصـر ، تجربة د. رحمن غركان أختياراً- ٢٠٠٣-٢٠١٦م .

صـالح مجيد على الخزرجي ، أطروحة دكتوراه ، جامعة كربلاء ، كلية التربية للعلوم الإنسانية ، ٢٠١٧ م.